تعريف بالكتاب

الطبيعة والحياة (*)

سبى نواظرنا الطبيعة ... وتروع وهى بنا مروعة
لولا الحياة لما تملـ ... ـت حفل زينتها الطبيعة
لما تمنت أن ترى ... من نفسها الصور الرفيعة
حييت وعلمت الحيا ... ة النطق فهى لها مطيعة
فرأت حلاها فى ريا ... ض الزهر حالية مريعة
ورأت صباها فى وجو ... ه الحسن والغرر البديعة
ورأت سناها فى مصا ... بيح السموات الوسيعة
وتناضلت بيد الفتى ... وحبت بأطراف الرضيعة
وتردت فى صارع ... بين ألسباع وفى صريعة
تخشى وتأمن نفسها ... فهى المخيفة والوديعة
فى الثلج نابضة وفى ... ريح السموم لها طليعة
ورأت قواها فى الريا ... ح الهوج واللجج الدفوعة
والجو رحبا خافيا ... والأرض ريّضة منيعة
ورأت نجىً ضميرها ... فى النفس مبصرة سميعة
تبدى الجميل وتستر الـ ... ـصور المشنأة الشنيعة
نحن المرايا وهى لا ... ترضى بمرآة صديعة
هيهات تصقل صادئا ... وهى الغنية والخليعة
لا تغبطينا أيها الأحجا ... ر فاللقيا سريعة
فغدا تشرفك الحيا ... ة ونحن أحجار وضيعة

(*) ص ٧١ ـ الطبيعة والحياة ج أول ديوان « يقظة الصباح » للأستاذ العقاد .

وهـــذه الكلمة هى عنوان القصـــيدة التى يجرى عليها الحوار فى الصفحات التالية ، ولكن القصيدة كلها سميت بالافتتاحية لأنها نظمت لتكون مقدمة للملحمة الكبرى التى أراد الشاعر أن يودعها سيرة حياته وخلاصة آرائه وتجاربه فى شئون الاجتماع وفنون الأدب وقضايا « الانسان » كلها على الاجمال ، ولكنه لم يتمها ولم ينشر ما تم منها فى حياته ، بل نشرت بعناوينها المتفرقة فى الطبعة التى ظهرت من ديوانه بعد وفاته .

وقد أردف عنوان « الافتتاحيـــة » بعنوان آخر تجمعـــه كلمتا « الخيال والذوق » .

وأراد بهـــاتين الـــكلمتين أن يلخص فيهما مذهبه ، بل مذاهبـــه المتتابعة ، التى انتهى اليها فى عمره الطويل ، وخلاصة هذه المذاهب جميعا أن هداية الفطرة والهام البديهة أصدق من كل هداية وأصح من كل الهام ، وأن العقل الذى لا يستند الى طبع قويم وذوق سليم وشيك أن يضل الطريق الى مقصده ، بل وشيك أن يجهل مقصده قبل أن يشتغل بالبحث عن الطريق اليه .

وربما اقتربنـــا من جـــلاء الرأى فى هذا المذهب اذا وضعنا كلمة « الغريزة » فى موضع كلمة الفطرة الصادقة التى تتلخص فى هداية الذوق وتصوير الخيـــال ، وليست كلمة « الغريزة » مقابلة لكلمة الفطرة كما يفهمها الشاعر العظيم ، ولكنها أقرب الملكات الى توضيحها فى مقام التمثيل والتقريب .

فالنحلة لا تخطىء هندسة بيوتها قيد شعرة ، وهى تبنى منها المئات والألوف ، ولكن المهندس المدقق فى رسومه وتقديراته لا يستطيع على الورق رسم عشرة أشكال متساوية دون أن يعتمد على مقاييس

الدوائر والخطوط ، وقد يخطىء النقل عن المقياس ان لم يستعن على رؤيتها بالبصر السليم .

وهكذا تنعقد المقارنة بين هداية الذوق والخيال وهداية العقل وحده فى رأى وردزورث بعد التجارب الطوال فى كل ما يعنيه من قضايا الانسان .

فالعقل الانسانى قد يخطىء القياس من أساسه لأنه يجهل ما يقيس عليه ، ويجهل المرجع الأخير الذى يصحح به قياسه فى جميع الأحوال ، ويخطىء الغاية التى من أجلها يقدر درجات الطريق وسبيل الوصول .

أما الذوق السليم فانه لا يخطى شيئا من ذلك لأنه يتلقى قياسه من الغايات نفسها كما يتلقاه من بواعث النفس المطبوعة عليها قبل الاتجاه الى الغاية وقبل مضيه فى الطريق اليها .

ويعبر الشاعر العظيم عن ذلك بالطابع الالهى الذى يبثه الخالق الحكيم فى خلقه فيسرى منه الى فطرة الانسان ، أو الى الطباع الحية وما تحيط به من تجارب العقول ، وهى التى تسدد للعقل وجهته كما يتجه الطائر على هدى الغريزة فى هجرته من أقاصى الشمال الى أقاصى الجنوب .

أما الخيال المطبوع فانه لا يكذب ولا يضل ، لأن حديثه الساذج ليس من أحاديث الكلمات والمعانى التى تقبل الزيف والكذب وتتعرض للزيغ والضلال ، وانما هو صور مرسومة ورموز منقولة بغير وساطة من المنطق والقياس ، ومن هذه الصور تولد شعور الأقدمين بعرائس البحر ، وأرواح الغاب ، وغيلان الصحارى ، وأطياف الليل ، وعقبان الجبال ... فان تكن الصور من قبيل الأساطير التى لا حقيقة لها فى مرأى الغير ، فلا ريب فى ترجمان العرائس والأرواح والغيلان

والأطياف والعقبان ، فانها جميعا تترجم لنا عن شعور لا يختلف قيد شعرة عن شعورنا بالأفراح والوساوس أو المخاوف والخواطر التى نحسها حين نلتقى بصور الأساطير من أفضاء لغة الخيال ، وهى لغة لا تتحدث الينا بالكلمات والحروف ولا بالمعانى والأفكار ، مما يعرض له الكذب أو يخشى عليه الضلال .

وصاحب هذا المذهب فى الذوق والخيال لم ينته اليه قصورا منه فى التفكير ، أو عجزا منـــه عن الفهم ، أو عزوفا منه عن الاطلاع ، أو نقصا فى تجاربه للناس من شتى الأمم والبلدان .

فان الذين نظروا الى الدنيا غير نظرته من أبناء عصره لم يجربوا من أحداث زمانهم خيرا من تجاربه ، ولم يدرسوا فوق ما درس من علوم الجامعات ومعاهد التعليم ، ولم يطلعوا من الكتب فى لغـــات الحضارة على أنفع للذهن مما أطلع عليه .

كلا ولا مراء ..

لقد كان نصيب وردزورث من الثقافة لا يقل عن نصيب أحد من جلة الحكماء فى زمانه ، وقد كانت تجاربه لحوادث التاريخ فى ذلك الزمان كأوفى ما يجربه الحكيم من أطوار الشعوب .

الا أنه كان من أصـــحاب العقول التى يسمو بها صدق الوعى وأمانة الفهم أن تنحصر فى زاوية من زوايا النظر ، أو تندفع بجملتها الى وجهة من الوجهات بين الأحزاب ومذاهب التفكير والتنظيم .

ولقد عاصر الثورة الفرنسية وعاش بين آثارها ولمس الكثير من حسناتها وسيئاتها ، وأقام فى البلاد الفرنسية زمنا فرأى على قرب من الثورة كيف كانت تقود زعماءها ولا يقودها الزعمـــاء ، وأدرك أن الذى أزالته من الشرور قليل لا تساوى ازالته كل ذلك الثمن من الوقت الضائع والدم المهدر والخسارة التى لا تعوض فى الأموال

والأرواح ، وأن الذى حققته بعد ذلك ـ قل أو كثر ـ كان ميسور التحقيق بثمن محسوب ، دون ذلك الثمن المبذول بغير حساب .

وكان فى بلاده الانجليزية ـ معقل الملكية ـ جمهوريا يدين بفساد الحكم الذى يتولاه الملوك ، ولكنه كان يعرف العيوب فى كلا الحزبين على السواء : حزب الاحرار وحزب المحافظين ، وقد عاش فى مدن الصناعة كما عاش فى قرى الريف ، وتعلم فى جامعة كمبردج وتلقى درجة الدكتوراه من أكسفورد ، فخرج من تجارب السياسة والتاريخ بالرأى الصراح فى المحافظة التى تحيل الناس الى آلات وبالتجديد الذى يحطم ثلث الآلات ليخرج منها آلات أخرى من طراز غير ذلك الطراز ، ولكنها فى نهاية الأمر آلات بغير روح .

وعلى كل هذا العلم بمساوىء الأحزاب ومساوىء الاجتماع لم يكن وردزورث ممن ينكرون فضل العقل الانسانى فى اصلاح الأمم وتقويم العوج فى أنظمة الحكومات ، بل كانت له عقيدته فى فضل التعقل والحكمة كيفما كانت حوادث التاريخ وتجارب الحكماء . غير أنه فضل الدروس التى تتركها الحوادث بعد الروية فى عواقبها ، وليس بفضل العقول التى تقودها الحوادث فتنقاد لها وتنحرف معها عن سواء السبيل ، وهى تحسب أنها هى التى تقود .

فليست عودة الحكيم الى الفطرة انكارا منه للعقل وتبعات العقلاء ، ولكنها انكار لشطط العقل وتبصير للعقلاء بمواضع الاعتدال بين الجماح والجمود ، وتفرقة بين القيد الذى يعطل الحركة وبين الزمام الذى يصون الحركة من العبث ويعصمها عن الضلال .

وقد كان حب وردزورث للطبيعة حب الحكيم البصير الذى لا يستغرقه هواه ، ولكنه كان فى حكمته هذه يشعر بها حيا محبا

لمعشوقة ذات حيـــاة ، ويحس — وهو القائل ان الطفل ابو الرجل — أنها تعرفه جيدا يوم كان صبيا يلاعبها وتلاعبه ويشب معها وتشب معه ، وبلغ من هـذا التجاوب بينه وبين جباله ومروجه مبلغ قيس فى فتنتة بليلاه حين لمح التوباد بعد غياب .

وكبرت للتـوباد حـين رأيتـــه
وكبـر لى التـوباد حـين رآنى

فتعلم محبو الطبيعة من سيد شعرائها وحـكمائها أن الحكمة فى تمامها لا تحيد عن سبيل الحب فى تمامه ، ولعلها تزيد عليه ويزيد عليها ، اذا هما اصطحبا فى وجدان محب كهذا العاشق الرشيد .

عباس محمود العقاد